رأي سبنسر في التعليم

عثرت في احد اجزاء مجلة التعليم الاميركية (اديوكاشنل رڤيو) على مقالة للاستاذ وليم هرس رئيس دائرة التعليم في الولايات المتحدة ردّ فيها على ما ارتآهُ الفيلسوف هربرت سبنسر من جهة التعليم في كتابهِ الشهير (اديوكاشن) فرأيت ان أُلخصها ليقف قراء المقتطف على آراء بعض ارباب التعليم العام في البلدان الغربية

من اعظم الامور في فلسفة التعليم امر تنسيق الدروس وتنظيمها بحيث يتلو بعضها بعضاً وتناسب الطلبة في المدارس الابتدائية والثانوية والعالية. وقد عظمت معارف البشر وتعدّدت مباحثُ العلم وتنوّعت وجرحهُ حتى صار يتعذر على الفرد ان يحيط بكل معارف السلف وجل ما يستطيعهُ ان يتناول نتفاً من هنا وهناك او يتفرغ الى الاستقصاء والتعمق في فرع واحد

وقد اضاف هربرت سبنسر الى آداب التعليم كتاباً عرّض فيهِ بنسق الدروس المتبع في مدارس بلادهِ وعرض رأيهُ في وضع نواميس لنسق افضل وتابع في هذا روسّو فأشار بالرجوع الى الطبيعة وعنى بذلك درس العلوم الطبيعية وقال ان هذا خير ما يتوخاهُ كل طالب. وافضل العلوم الطبيعية عندهُ علم العمران (السيولوجيا) وعلم الحياة (البيولوجيا). ولا ريب ان قولاً كهذا لفيلسوف كهربرت سبنسر ينجذب اليهِ الناس ويرون صدقهُ بما يتجلّى لديهم من الاكتشافات العلمية وما يسمعونهُ في كل يوم عن الاختراعات المفيدة في الطبيعة واستخدامها لمنفعة الانسان وتحويل قواها الى خدمتهِ وتسهيل اعمالهِ. على ان الباحث في فلسفة التعليم المنصف في استنتاجاتهِ المدقق في احكامهِ يعترض على رأي سبنسر لانهُ يرى ان كتابهُ لم يمشِ على طريقة عملية في تناول التعليم فان الطريقة العملية تقضي على الباحث في اي شيء كان ان ينظر في اصلهِ وفصلهِ وكيفية نشأتهِ وارتقائهِ والاسباب الباعثة على ذلك

باي تعليم يشير سبنسر؟ التعليم الذي يشير بهِ سبنسر هو التعليم الذي تتكل فيهِ المعيشة فكل ولد يدخل المدرسة ينبغي ان يتعلم صناعة استكمال المعيشة وذلك بان يتدرب على الاعتناء بجسدهِ ويتبع عملاً ما في باب المأكل او الملبس او المأوى — وعلى هذا فلا يكون التعليم الاول عندهُ ما يتعلق بحياة الانسان الروحية وما يعدهُ لفهم الكون حسبما توصلت اليهِ المدنية الحاضرة بل ما يرمي الى حفظ الذات مباشرة. على اننا لو عرّفنا المعيشة المستكملة بقولنا هي إعداد كل فرد حتى يشارك امتهُ في حياتها واختباراتها ويعمل على ترقيتها لرأينا ان هذا يستلزم اعتبار المدنيات السالفة والاطلاع على مباديها التي كانت اساساً أُقيمت عليهِ

مدنيتنا الحاضرة . ولا مشاحة ان حفظ الذات لا يقتصر على مجرد تجهيز الجسد بحاجاته بل يتناول معرفة السلوك الواجب والوقوف على العوائد والازياء وآراء الناس في الحياة والعلم الى غير ذلك من الوسائل التي تمكن الانسان من ان يسلك من حوله بدون تخاصم وتباغض . هذه هي المعرفة التي تقود الى حفظ الذات . والفرد الذي لا يتحد مع من حوله اتحاداً يحملهُ على ان يشتغل معهم في مصلحة عامة ويظاهرهم فيها بحيث يكون مجمل اعمالهم في خطة الترقي بل يتصرف تصرفاً يأول الى التعطيل والتخريب فمثل هذا يضطرهم الى ان يعارضوهُ ويدوسوهُ تحت ارجلهم . وهنا ينجلي فضل الآداب والدين على الهيئة البشرية ولا جرم فان الغاية منها تعليم المرء كيفية المعيشة مع الناس بتجنب الضار وعمل النافع وعليهِ فهي اهم الوسائل لحفظ الذات

على ان سبنسر يرى ان من اول مصالح الولد ان يتعلم الفسيولوجيا ثم يحترف حرفة يضمن بها وسائل التعيش ثم يتدرب في حقوق المدنية وآخر الكل يشير بدرس علم الادب والفنون وغير ذلك مما يرد في باب التسلي والتلهي — وهذه يتناولها الانسان في اوقات الفراغ بعد ان يتقدم في العمر

من اقوال ارسطو — الانسان حيوان راعز يعني بهِ انهُ يعبر عن طبيعتهِ بالتشابيه والاستعارات والكنايات وهكذا يفعل الشعراء المجيدون يتخيلون الصورة الكمالية ويحسنون وضعها باستعاراتهم وكناياتهم ويقوم الكتبة ويرسمون افكارهم على صفحات الكتب فتتناقل هذه ايدي القراء وتتناول افكارهم افكار اولئك الكتبة ويلتقي التاريخُ بالكاتب فيتعارفان ويتبادلان الافكار ويفترقان اما على تفاهم واتفاق واما على تضارب واختلاف . وعلى هذا فيكون علم الادب من اهم فروع التعليم الذي يقصد بهِ انارة عقل الولد بالاطلاع على وجوه الطبيعة البشرية وفهم مقاصد بني جنسهِ وامياله وبدون هذه الانارة يصعب عليهِ التآلف مع غيرهِ فيصبح مبغضاً للهيئة البشرية يرى يد كل واحد عليهِ وبالنتيجة يدهُ على كل واحد

قال افلاطون في بعض مطارحاتهِ يجلس المرء في مرسح الحياة ويشاهد خيالات الناس والحوادث ترتسم امامهُ على الستار ومن خلفهِ المدير الاعظم لهذه الخيالات التي ليست سوى حركات عامة في الكون او نظامات تتجلى في اربعة اشياء هي العائلة والمدينة والبلاد والديانة . وفي طي هذه تصبح الحوادث الافرادية مجرد اظلال يعللها المرء باختباراتهِ ويعللها على حقائق كبرى تاريخية

وما المدرسة الاَّ درجة متوسطة بين العائلة ونظامات المجتمع الانساني وتأثير هذه غير تأثير المدرسة ولها وسائط للتعليم مختصة بها لا توجد في المدرسة لا بل هي فوق المدرسة . ففي العائلة يتعلم الطفل لسان امهِ ثم يتدرج في معرفة كيفية الاعتناء بنفسهِ واشيائهِ من حيث النظافة

والترتيب ويتدرب على اكتساب السلوك الذي يعدهُ للهيئة البشرية والعوائد التي تقوى فيهِ بالممارسة حتى تصبح من مبادئهِ واخلاقهِ — كل هذا يتلقاهُ في العائلة التي يشب فيها ويتلقى معهُ ايضاً التعاليم الدينية والوصايا الادبية التي تكون من اهم المقدمات لتلك العوائد والاخلاق

اما الهيئة المدنية فتتناول تدريب الحدث على الاحاطة بحرفتهِ ومعرفة خصائصها وتريدهِ بالاختبار المرّ احياناً ان تحصيل رزقهِ انما يكون بان يجهز لبني جنسهِ شيئاً ينتفعون بهِ . وعليهِ فمعرفة آداب السلوك وكيفية تصرف الانسان نحو المشتغلين معهُ او نحو الذين هم فوقهُ او دونهُ كل هذا ضروري لهُ كمعرفة طرق الاحتراف نفسهِ . هذا زيد من الشباب الاذكياء الماهرين في صنعتهِ لكنهُ قاصر في معرفة السلوك الواجب نحو الناس فهو خشن الطباع يجاوب بحدةٍ ولا يراعي حاسات غيرهِ فترى الناس يتجنبون التعاطي معهُ بقدر الامكان . فالمهارة في الصنعة لا تؤدي الى قمة النجاح ان لم يصاحبها الحزم في الامور والاستقامة في السيرة واللطف والمعاشرة ولين الجانب في تعاطي الاعمال

. واللامة تعليم خاص ايضاً فهي تعلم الفرد واجبات المدنية وتهذبهُ بجعل اعمالها ومشروعاتها وتؤثر عليهِ بالمنزلة التي تشغلها في العالم . وكما ان تقدم العلوم الطبيعية والفنون المفيدة يحمل الفرد على الرغبة في تحصيلها والدأب في اتقانها هكذا شعور الفرد بأنهُ ينتمي الى شعب عظيم وامة مفلحة يقودهُ الى السعي وتطلب الرفعة

وكذلك الديانة فانها تعلن مقاصد الله في الخليقة وترفع الصورة الكمالية لدى الناس ليسعوا نحوها ويقيسوا اعمالهم ومآتيهم عليها واذ ذاك فتعليمها اشد انواع التعليم تأثيراً وافعلها في النفس . ألا ترى ان من يتشبث بمعتقدٍ ما يتصرّف حسبهُ ويكيف افكارهُ واعمالهُ عليهِ . وهذه الاوجه الاربعة من التعليم لا توجد في دائرة المدرسة مباشرة ولا يكتسبها المرء الاّ في دوائرها الخاصة فكم تلميذ قرأ فحفظ ثم خرج الى العالم ظانّاً ان ما في رأسهِ من المحفوظات كافٍ لانجاحهِ وتسييرهِ في خطة العظماء فكان اول شيء خبرهُ ان العالم لا يفتقر اليهِ كما كان يزعم وان مصالح الناس قائمة بدونهِ وان سبيل النجاح ليس بالسهل المنبسط كما كان يتوهمهُ وهو في المدرسة وان الافلاح لا يقوم بمجرد المحفوظ والمقول بل بمقدرة الفاعل على إحكام المفعول وهذه لا تأتي الاّ بطول المزاولة والاختبار واحتكاك المصالح بالمصالح والافكار بالافكار

والمدرسة على ضيق مجالها لا تقصر عن ان تنشئ في الولد عادة الاعتماد على النفس وتقويها فيهِ بنظامها وقوانينها ومطاليبها وتدربهُ على استخدام وقتهِ وتكييف سلوكهِ بحيث يشترك في اعمالها وينتفع بتهذيبها وتفهمهُ باجلى وضوح ان العلم والمعارف والتقدم لا تدرك الاّ بسعيهِ الخاص ودأبهِ الدائم

اما قول سبنسر ان التعليم هو الموضوع الذي تنطوي فيهِ المواضيع وينتهي اليهِ كل موضوع فقد عنى بهِ التعليم المدرسي وهذا مردود عليهِ كما مرَّ آنفاً فان تعليم المدرسة لا يتضمن كل تعليم وجل ما تفعلهُ المدرسة هو ان تهيئ قوى التلميذ العقلية وتعد لهُ منها ادوات يبحث بها عن حكمة الامة ليتفهمها وان امكن يزيد عليها. والتلميذ الذي يرى في المدرسة نهاية دروسهِ وخاتمة علومهِ وفي الدبلوما ثمة سعيهِ وابحاثهِ فهو بعيد عن جادة التلمذة متسكع في شعاب الدروس لا يدري اولها من آخرها ومثل هذا يتبرأ العلم الشريف منهُ وترتجف المدرسة لوجودهِ فيها

ثم ان لتعليم المدرسة ثلاثة ادوار — الدور الابتدائي والدور الثانوي والدور الاخير. وكأنَّ النفس توجد في برج مظلم لا ينفذهُ الاَّ نور العلم وحينما تمر في الدور الاول من التعليم تنفتح لها طاقات شتى فتهبّ من سباتها وتطل من تلك الطاقات الى الخارج ثم تمر في الدور الثاني فتنفتح لها طاقات اكبر واعلى ويمتد بصرها في الوجود حتى تدخل في الدور الثالث فتنفتح لها ايضاً الطاقات العليا فتطل منها على الاكوان وما يتجلَّى من مظاهرها الطبيعية

وفي المدرسة الابتدائية يتعلم الولد القراءة والكتابة ويزيد على محفوظاتهِ اصطلاحات حسابية وجغرافية وعملية لان ما تعلمهُ قبل دخول المدرسة يحصر بين ثلاثمائة وثلاثة آلاف كلمة هي على الغالب اسماء ذوات ومعان وافعال بسيطة تختص بالاعمال اليومية والمشاهدات العامة لا تناسب للتعبير عن الحقائق العالية ولا تكفي في الانشاء والوصف الدقيق. ففي الحساب يتعلم الاعداد وبعض خصائصها ثم يأخذ الجغرافيا فيتعلم فيها عن تغيرات وجه الارض والعوامل فيها وتوالي الفصول وتفرق النبات والحيوان ويقف على شيء من نسبة الارض الى غيرها من اجرام هذا الفضاء ويقرأ عن حاصلات الاقاليم المختلفة وكيفية تبادل هذه الحاصلات في متاجر العالم بحيث تنتقل من مصادرها الى كل جهة فيتمثل بذلك ارتباط الهيئة البشرية بعضها ببعض على شدة الاختلاف في الاقاليم والمدنيات ويرى سعي الانسان في تقريب المسافات وقطع الابعاد

وفي درس الصرف والنحو يلاحظ كيفية اشتقاقات الكلمات بعضها من بعض وطريقة تركيبها بحيث تظهر العلاقة المنطقية بين اقسام المركَّبات ويتدرَّب على التمييز بين الاسماء والافعال والنعوت والظروف والضمائر وغيرها من اقسام الكلام فتترقى فيهِ قوة النظر الداخلي ويحرز المقدرة على التمييز بين ما يقال وبين الكيفية التي يقال فيها وينتهي الى ادراك القواعد التي تربط الكلام بعضهُ ببعض. ثم يدرس التاريخ مستودع اخبار الغابرين ومستعلن اعمالهم وامالهم وفيهِ يستكشف مطامع الناس فيلقى منها ما ينطبق على مطامعهِ وما يختلف عنها

ويتتبع الحوادث فيرى في مجموعها سير الافراد في مطامعهم للفوز او للفشل حتى تتلاشى الفردية وتحيى القومية . كل ذلك مع ما يتعلمهُ في كتب الادب من الالفاظ المتفرقة والمعاني الجديدة يصبح في حوزهِ من مفتكراتهِ ومعبراتهِ

ولا مراء في ان الكتبة المجيدين رأوا في الطبيعة غير ما رآهُ غيرهم وقيدوا ما رأوهُ بالفاظ هي درر في الانشاء ومعان هي آيات في البلاغة فاذا تسنى للتلميذ المتنبه عقلهُ الى تحصيل المعرفة ان يتناول مثل هذه الكتب ويقف على ما فيها تنفتح بصيرتهُ الى اشياء جديدة فيرى في الطبيعة ما لم يرهُ من قبل ويتخيل تخيلات لم تجرِ في مخيلتهِ قط . فالادب اذاً يرفع النفس الى طاقة تطل منها على الطبيعة البشرية ويكشف لها عن الاميال التي تلعب باعمال الناس ويريها ان هذه الاعمال تبتدئ اولاً بالشعور البسيط ومنهُ تنتقل الى الافكار والتصورات ثم الى الحركة والاجراء . كل هذا مما تتضمنهُ آداب اللغة وتطويهِ صدور الكتب الشعرية والنثرية ومع ذلك فالمستر سبنسر يضع درس الآداب مؤخراً عن كل درس ويدخلهُ (ان كان ثمَّ فراغ لهُ) بعد العلوم والاحتراف ومعرفة الاعتناء بالجسد . ولا غروَ فهو لا يرى من هذه الطاقة سوى التسلي والتلهي بخلاف الفيلسوف التهذيبي الذي يرى في علم الادب والفنون ذريعة كبرى في التربية . وعليهِ فالجرائد والمجلات والكتب والمنشآت على اختلاف صيغاتها ومناحيها تمثل لنا صور الحياة البشرية وتظهر اوجه المدنية وتعمل معاً في تكوين الرأي العام الذي يتغلب في عصر الحرية هذا . وحيث لا يتغلب الرأي العام ولا تجري مباحثات حرة على مقاصد الناس الذين حوالينا وعلى نتائج اعمالهم تنشأ المظالم في ظلال الاستبداد المطلق

والباحث في نسق الدروس في المدارس الابتدائية يتعجب من الاتفاق الحاصل في اختيار فروع التدريس ولا غروَ فان ذلك نتيجة اشتغال طويل واختبارات شتى ثبتت معها العمدة وسقطت الفضلة وعلى هذا نجد كل مدرسة تعلم الحساب والجغرافية ومنتخبات للقراءة والنحو وتاريخ البلاد . وكلما نظرنا في هذه الفروع الخمسة رأينا انها تتناول مدركات الولد وكلاً منها لهُ موقع لا يقوم بهِ الآخر . وعلى هذا النمط تمشي نسق التدريس في المدارس الثانوية من الحساب الى الجبر والهندسة والفلسفة الطبيعية . ويحل محل الجغرافية علما النبات والحيوان وغيرهما من العلوم الطبيعية ويمتد علم الادب الى تاريخ آداب اللغة ويتناول اللاتينية واليونانية اللغتين اللتين لهما التأثير الاعظم على التمدن الحاضر . ويبدل تاريخ البلاد بتاريخ العالم . وبالاخص تاريخ اليونان والرومان

وهنا نجيء الى النقطة المهمة في ما اعترض بهِ سبنسر عند تفضيلهِ اوجه التعليم وفي طعنهُ

في درس آداب اللغة وبالاخص درس اليونانية واللاتينية في المدارس الابتدائية والثانوية. واول ما نذكرهُ على سبيل الرد هو ان في اللاتينية واليونانية مجالاً واسعًا لدرس اصول المدنية الحاضرة فضلاً عن ان آداب اليونانية وفنونها الجميلة وفلسفتها ومبادىء العلوم فيها كلها تُظهر ما يمكن للعقل البشري ان يتصل اليهِ اذا أُطلقت لهُ الحرية. وهذه تآليف افلاطون وهوميروس وهيرودوتس وارسطو ترسم للقارىء اجل صورة عن مبادىء اليونان ورتبتهم في المدنية. ومثل ذلك يقال عن كتابات ليفي وهوراس وفرجيل وشيشرون ففيها نرى ما توصلت اليهِ رومية في خلال الف سنة من درس الاحكام وتجربتها وسن الشرائع التي تمكن الفرد من ان ينظم شؤون الافراد ويرفعهم الى وحدانية القومية او الدولة. وعليهِ فدرس اليونانية واللاتينية في الدور الاول والثاني من ادوار التعليم في كل البلدان المتمدنة يعتبر كدرس اصول التمدن الحالي. وهربرت سبنسر نفسهُ اذا اراد درس طبائع الضفدع مثلاً فانهُ يفحص عنها من البيضة والعرمة الى الضفدعة الكاملة. وكذلك اذا اراد البحث عن السلحفاة والفراشة. وكان الواجب عليهِ ان يرى انهُ اذا كان في التعليم المدرسي ما يرقف الانسان على مدنيتهِ معنويًّا ويشعرهُ بنمو تلك المدنية من عصر الى عصر فذلك التعليم ينبغي ان يشتمل على درس اصول المدنية التي هو فيها. وبهذا الاعتبار نرى السبب في تنسيق الدروس على النمط الحالي ونقول ان الحرب التي اثارها عليهِ سبنسر لا تجدي لانهُ لما لم يعرف السبب الذي قاد مديري التربية الى اعتماد هذا المساق ظن انهُ ليس لهُ اساس راهن واذ ذاك فنقضهُ اولى. هذا وفي الدور الاخير من ادوار التعليم يتعمق الطالب في الفرع الذي يختارهُ ويستقصي في ابحاثهِ بحيث يقف على كل ما ينطوي تحت ذلك الفرع من معارف الغابرين والحاضرين ويزيد عليهِ ان امكن

والخلاصة ان التعليم في الدور الاول من طبيعتهِ ان يكون سطحيًّا لان القصد منهُ درس الحقائق. اما في الدور الثاني فيجري التدقيق في كيفية التفكير وايجاد المبادىء التي تأسست عليها الحقائق السابقة وهذا نوع من الاكتساب العلمي الذي لا بد للطالب من الاحاطة بهِ قبل التقدم الى الدور الاخير الذي تدرك فيهِ الوحدة في المعارك البشرية وتجري المقابلة بين فرع وآخر وتمييز الاهم من المهم. هذه هي مرامي ادوار التعليم الثلاثة وواضح ان مديري التعليم لم يقرروها عن بحث فلسفي في انسبيتها بل تلقفوها خلفًا عن سلف. وكان حريًّا بالمستر سبنسر كفيلسوف ان يستقصي هو في معرفة القصد من وضعها ويرجع منهُ الى اصلهِ كما يفعل لو كان يدرس طبائع النحل او النمل ولعلهُ فرض ان اللاتينية واليونانية كانتا مفيدتين لمَّا

كانتا لغة اهل العلم اما وقد تحولتا عن ذلك فلا يعلل وجودهما في نسق الدروس الاَّ بالرغبة في المحافظة على القديم . وختام الكلام ان موضوع بحث سبنسر في "ما هو افضل شيء نتعلمهُ" اذا خضنا فيهِ نتوصل الى نتيجة مختلفة جدًّا عما توصل اليهِ هو على اننا نسلم ان المسألة لا تزال في حيز البحث والحاجة الى كثرة التنقيب والتروي . انتهى

المدرسة الكلية ببيروت بولس الخولي

التنويم في معالجة الآلام العصبية

من خطبة للدكتور داموجلو القاها في الجمعية الطبية المصرية في جلستها المعتادة في ٦ فبراير

سادتي اجتنابًا للتطويل في تفسير جميع ما اخبرتهُ اكتفي بان اعرض على مسامعكم الحوادث الاربع التالية

﴿ الحادثة الاولى ﴾ حضر الى محل عيادتي في ١٥ دسمبر الماضي ن ... س ... وله من العمر ٢٤ سنة وهو قاطن في شبين الكوم . واخبرني انهُ مصاب منذ شهرين بألم شديد في اعصاب صدغهِ الايمن وقال لي ان المهُ يشبهُ ضرب المطرقة وكان بسببهِ لا يستريح لا ليلاً ولا نهارًا وانهُ استعمل علاجات مختلفة ولكن بدون جدوى وطلب ان اعالجهُ بواسطة التنويم المغنطيسي ولكن قبل ان اباشر شيئًا رأيت ان ارسلهُ الى طبيب الاسنان لاني اردت ان اتحقق انهُ ليس مصابًا باحد امراض الاسنان العصبية واذ ثبت لدى الفحص الطبي ان ليس فيهِ شيء من ذلك نوَّمتهُ التنويم المغنطيسي وما شخصت اليهِ بضع دقائق حتى وقع في ثبات عميق . وبعد نصف ساعة افاق واخبرني ان آلامهُ سكنت ثم نام في الليل بكل راحة وهدو . وفي اليوم التالي أعدت تنويمهُ وتركتهُ نائمًا ساعة من الزمان وعندما افاق قال لي انهُ قد ذهبت جميع آلامهِ واراد الرجوع الى بلدهِ فاردت ان اتحقق شفاءهُ النهائي وكلفتهُ ان يرجع اليَّ بعد اسبوع . فوعدني بذلك ولكن لم يفِ بوعدهِ ومضى على غيابهِ شهران لم اسمع عنهُ شيئًا ثم حضر اخوهُ ودفع اليَّ خطابًا منهُ قال فيهِ بعد التشكرات الكثيرة انهُ شفي تمام الشفاء من آلامهِ الصدغية

﴿ الحادثة الثانية ﴾ كانت قرينة احد ضباط الجيش المصري وعمرها ٤٥ سنة تشكو منذ ستة اشهر من الام عصبية (عرق النسا) في مفصل الركبة اليمنى وخصوصًا في كعب الرجل وكان الضغط على طول مسافة العصب يحدث لها آلامًا شديدة جدًّا ولاسيما عند جلوسها او